تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوي

لقاء لا ينسى مع طه حسين :

فى صباح يوم الأحد ١١ فبراير طالع الناس فى إحدى الصحف اليومية المعارضة ، هجوماً موجهاً إلى وزير المعارف وبعد ذلك بيومين كنت أتلقى اتهاماً سافراً بأننى صاحب هذا الهجوم ، إن لم أكن على التحقيق قد أوحيت به . . وقلت لمن حمل إلى نبأ الاتهام نقلا عن أفواه المشرفين : يتهموننى أنا ؟ ولماذا يا صديق ؟ ترى هل تستطيع أن تنقل إلى مرة أخرى مصادر الشبهات ؟ وكان رد الزميل الأديب : لأن بينك وبين الصحافة صلة عامة هى صلة القلم ، وبينك وبين رئيس تحرير الصحيفة المعارضة صلة خاصة هى صلة القرابة ، وبينك وبين وزير المعارف كما يقال أشياء !

كان ذلك فى صباح الثلاثاء ١٣ فبراير ، وقبل أن أعقب أو أسأل المزيد من الوضوح ، أقبل رسول موفد من مكتب الوزير ليوجه إلى الحديث فى كلمات : معالى الدكتور طه حسين باشا يطالبك فى تمام الساعة العاشرة والنصف ! ونظر إلى الزميل الأديب نظرة طويلة وعلى شفتيه ظل ابتسامة ، معناها فى لغة الصمت المعبر عن حديث الشعور : لقد بدأت المحاكمة !

وتركت حجرتى المتواضعة وفيها الزميل الأديب ، وأخذت طريقى إلى الحجرة الضخمة التى ينتظرنى فيها حساب وعقاب . . . وهناك تذكرت حقيقة من الحقائق لا أدرى هل أوحى بها الموقف أم أوحى بها المكان : هذه الحجرة أقسم صادقاً أننى أطرق بابها لأول مرة ، وأدخلها لأول مرة ، وما اتجهت إليها نفسى فى يوم من الأيام . . ربان ! ما أعجب الذين يعرفون هذه الحجرة ، يعرفونها كلما ذهب عهد وجاء عهد ، وكلما مضى وزير وأقبل وزير حتى لقد حذقوا فنون التلون كما تحذقها كل حرباء !!

واستقر بى المقام فى مكتب الوزير لحظات ، ثم خرجت بعدها حين رأى صاحب المعالى أن يتم اللقاء فى منزله ، على أن يكون فى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم . . وأقف قليلا لأقص عليك قصة الألم المشبوب الذى ألهب منى الشعور وعصف بالوجدان ، حين حملنى الخيال على جناحيه ليطالعنى على مشاهد شتى وآفاق : ربان ! هذا الرجل الذى لم يؤمن فى حياته بقيمة من القيم كما آمن بحرية الفكر ، ولم يتطلع إلى مثل من المثل كما تطلع إلى كرامة العقل ، ولم يقدس صوتاً من الأصوات كما قدس صوت القلم ؛ هذا الرجل يتغير هكذا مرة بما بين الأمس واليوم ، ثم يطلب إلى أن ألقاه ليحاسبنى على أننى قدست ما كان يقدسه ، وتطلعت إلى ما كان يتطلع إليه ، وآمنت بما كان يؤمن به ؟! ولماذا يحاسبنى ؟ ألأنه وزير للمعارف وأنا موظف بوزارة المعارف ؟ وهب أننى كنت كاتب هذا المقال الذى لم أكتبه ، فياله من عجب أن يكون الرجل الذى يحاسب الأحرار . . . هو طه حسين !!

وامتدت يدى إلى القلم فى عنف ثائر ، ومضت تخط على ورقة بيضاء سطوراً أملتها الكرامة . . وطويت استقالتى لأقدمها لوزير المعارف فى الموعد المرتقب ، ولأقول له إذا ما لقينى بوجه عابس أو بصوت غاضب أو بثورة عاصفة : لا يا سيدى ! هذه هى استقالتى بين يديك ، واستقبلنى بعد ذلك بوجه الأديب الكبير لا بوجه الوزير ، أو بلسان المضيف السمح والرجل الكريم . . . يفتح بابه وقلبه لضيف عابر إن طرق الأبواب فهو لا يقيم !!

أشهد لقد كانت هذه هى خواطرى التى تملأ آفاق النفس والحس قبل أن أبرح بيتى لأذهب إلى بيته ، وأن هذه الخواطر قد صحبتنى وأنا أقطع الطريق وأحث الخطى إلى هناك ، إلى حيث ينتظرنى حساب وعقاب . . . لقد كان يجلس وحده فى حجرة المكتبة ، وحين تجاوزت الباب وألقيت بتحية المساء ، نهض طه حسين واقفاً ليصافحنى بحرارة ، حتى لقد هبت على الروح من الماضى البعيد نسمات . . وجلس وجلست ، وأحضرت القهوة فشرب وشربت ، وأخرج علبة سجائره ليقدم إلى واحدة يتبدد فى الهواء دخانها وتتبدد معه الظنون !

وبعد عبارة ترحيب نبيلة أعقبتها منى كلمة شكر ، بدأ طه حسين

الحديث : « لقد قرأت لك منذ قريب مقالا في « الرسالة » آلمني كل الألم ، حتى لقد بحثت في طلابك لأعبر لك عن أسفي ومصدر الأسف أنني كنت السبب المباشر أو غير المباشر في أن حرية الفكر قد صودرت ، يوم أن خطر لك أن تهاجمني فحيل بينك وبين هذا الهجوم ! لقد كان مقالك الذي عنيته به تحت هذا العنوان : « مشكلتي مع الأستاذ الزيات » . . . وقد فهمت أنني الوزير المقصود بتلك الكلمة ، لأنك كنت تقول للقراء إن صديقك الزيات قد حذف مقالك ، لأنه كان هجوما عنيفا على أحد الوزراء . وكنت تقول لهم أيضا إن الزيات يشفق عليك من حماسة الشباب وفورة الشباب ، وما ينجم عنهما من عنف القلم وجيشان العاطفة ، ولهذا فقد حال بينك وبين حرية الرأي حرصا منه على مستقبلك . وكنت تقول لهم مرة ثالثة إنك كاتب تعودت أن تكون صريحا وشجاعا لا تهمك العواقب بقدر ما يهمك أن تعبر صادقا عما في نفسك ، وإن الزيات بهذا الإشفاق سيجني عليك من حيث لا يدري ولا يريد، لأنه سيدفعك آخر الأمر إلى أن تتحرر من أسر الوظيفة ، وحينئذ تستطيع أن تقول عن الوزراء ما تشاء . . أليس كذلك ؟ إسمع يا أستاذ : إن طه حسين الذي وهب قلمه قربانا لحرية الفكر يعز عليه أن تصادر من أجله حرية الفكر ! قل للزيات إنني عاتب وغاضب لأن طه حسين قد طبع على أن يحب للناس ما يحب لنفسه : يحب لهم الكرامة ، ويحب لهم الشجاعة ، ويحب لهم الحرية ، وإنه ليسعده أن يواجه الناس بمثل هذه الأسلحة ما دام رائدهم الحق وقائدهم الضمير . . . أيظن صديقي الزيات أنك حين تهاجمني ثم يسمح بنشر هذا الهجوم على صفحات « الرسالة » ، أيظن أن ذلك سيفسد ما بيني وبينه من أسباب الود وروابط الوفاء ؟ كلا ! إن شيئا من هذا لا يمكن أن يكون ... لأنني واثق كل الثقة من أنك لست كغيرك من الناس ، أولئك الذين لا يرجعون إلى ضمائرهم فيما يكتبون ! هذه كلمات أود أن تنقلها إلى الأستاذ الزيات ، إذا ما كان هدفه الأول من وراء حذف كلمتك هو إرضاء طه حسين ... أما إذا كان يشفق عليك حقا لأنك موظف في الدولة أو موظف في وزارة المعارف بالذات ، فإن وزير المعارف يأذن لك في أن تهاجمه كما تشاء وبأي أسلوب تحب ! إن أقول لك لا تخف لأنني أعرف أنك لا تخاف ، ولو كنت من الذين يخافون لما احترمتك . . . إن أقول لك هذا ، وإنما الذي أريد أن أقوله هو أن طه حسين لا يضيق أبداً بحرية الرأي ، سواء أكانت هذه الحرية موجهة إلى نقد أعماله كأديب أو نقد أعماله كوزير ، لأنه لم يزد على كونه إنسانا يخطئ ويصيب » !

هذا هو طه حسين كما رأيته على حقيقته . . جئت إليه ليحاسبني فإذا هو يحاسب نفسه ! ! أشهد لقد هزني كلامه هزا عنيفا ، وما تعودت أن يهزني شيء كما هزني تلك المواقف النادرة، هناك حيث تتجرد النفوس من أكفانها ، ثم لا يبقى لها غير ثوب واحد . . هو ثوب الإنسانية ! لقد كان طه حسين في تلك اللحظة يرسم على لوحة الشعور صورة فريدة لم يرسمها من قبله إنسان . . ولا فنان ! أهذا هو الرجل الذي صحبت الظنون حين تصورته ، فظلمت نفسي وظلمته ؟ يا عجبا ! لقد كان الرجل العظيم النبيل بريئا مما تخيل أنه منسوب إليه ، ومع ذلك فقد دفعه الضمير الحر اليقظ إلى أن يدفع عن نفسه كل شبهة ، حين يكون الأمر متعلقا بحرية غيره من أصحاب الآراء والأقلام ... وقلت له وأنا مأخوذ بنبله ومفتون بإنسانيته :

« أود أن أقول لك يا سيدي إني عاجز عن شكرك ، وأعتذر إليك من هذا الذي تبادر إلى ذهنك ، لأن المقصود بذلك الهجوم كان وزيراً آخر غير طه حسين ، وتلك حقيقة يعرفها الأستاذ الزيات » !

وعقب الرجل العظيم النبيل في تواضع جميل : « إذا كانت هذه هي الحقيقة فإني أكون قد أزعجتك . . ومرة أخرى أعبر لك عن أسفي » !

وقلت له وقد تكشف لي من أمره ما لم أكن أعرف : « يا سيدي عفوا . . وإذا كان إزعاجك لي معناه أني سأعرفك على حقيقتك ثم أتحدث عن هذا الذي عرفت إلى الناس ، فأرجو أن تزعجني كل يوم . . . وما دمت تؤمن بحرية الرأي لغيرك كما تؤمن بها لنفسك ، فأود أن تأذن لي في أن أقول لك بصراحة : إن لدي كلاما كثيرا أود أن أفضي به إليك هنا ثم أتحدث به إلى الناس هناك ، أعني على صفحات « الرسالة » . ولكني أخشى أن يعترض الزيات طريقي غدا كما اعترض طريقي بالأمس ، لأن هذا الرجل من أحفظ الناس لود الأصدقاء وفي مقدمتهم طه حسين !

ولا أقصد بالطبع أنه حال بيني وبينك في ذلك الموقف الذي حدث منذ قريب ، ولكنه فعل ذلك في موقف آخر بالأمس البعيد ، حتى لقد انقطعت عن « الرسالة » شهرين عدت بعدهما إلى الكتابة خضوعا لرغبة الأصدقاء . . . هل تسمح لي بأن أوجه إليك شيئا من النقد في ناحية خاصة ، كانت ولا زال مثار الم عميق ، عند من يصمون ثقتهم فيك » ؟ !

واعتدل الرجل العظيم النبيل في جلسته ، وأقبل على بوجهه السمح وخاطبني بصوته الحبيب : « قل لي ما تشاء يا أستاذ ، وقل عني لقراء « الرسالة » ما تريد ، وانقل إلى الزيات ما سبق أن أشرت إليه ، وهو أني سأكون عاتبا وغاضبا إذا اعترض طريق رأي من آرائك في طه حسين ، وحال بينه وبين أن يبلغ منافذ الأسماع .. صدقني أن كثرة شواغلي لا تتيح لي أن أقرأ الكثير من الإنتاج الأدبي ولا أن أتابع الكثير من الكتاب ، ومع ذلك فأنت واحد من هذه القلة التي أحرص على أن أقرأ لها في كل حين » !

وقلت وقد علبني التأثر بعد هذا الثناء المضمخ من سمو الخلق بأركى عبير : « إذا كان هناك شيء أعتز به فهو كريم تقديرك .. وإذا كان هناك أمر أود أن أطالعك به فهو أن أقول لك : لقد فعلت الكثير من أجل التعليم والمعلمين ، ولكنك لم تفعل إلا القليل من أجل الأدب والأدباء » !

وارتسمت على وجهه مظاهر الاهتمام ، وعبرت قسماته عن سؤال ينتظر الجواب ثم قال : « أما عن التعليم فأنت مقال فيما نسبته إلي من جهد في سبيله ! ماذا فعلت من أجل التعليم ؟ إنها خطوة قصيرة المدى محدودة الأثر أرجو أن تعقبها خطوات . . . وأما عن الأدب وأهله ، فأود أن تقدم إلي بعض الأمثلة تأييدا لاتهامك ! هل أنا مقصر حقا في هذه الناحية ؟ وماذا ينتظر مني الأدب وماذا يطلب الأدباء » ؟

وأجبت وأنا من تواضعه الجم في حيرة تقترن بالإعجاب : « لا يا سيدي ! إذا كان التواضع سيفرض عليك أن تظلم نفسك وأن تنكر جهدك فإن التاريخ سينصفك بلا جدال ، وأعتقد أن الرأي العام قد بلغ من النضج والوعي ما يهيء له أن ينظر إلى أعمالك نظرة عادلة ، مهما حاولت أن تختفي وراء حجب شتى من التواضع وإنكار الذات . أما إذا كنت ترغب في أن أقدم إليك بعض الأمثلة على أنك لم ترع الأدب ولم تذكر حقوق الأدباء ، فلا بأس من أن أتحدث هنا باختصار على أن يكون الحديث الفصل على صفحات الرسالة » !

وعندما قدمت إليه بعض الأمثلة هتف الرجل العظيم النبيل في عبرات صادقة : « إنني لا أستطيع إلا أن أوافقك .. وأكون شاكراً لو تناولت قلمك وكتبت في هذا الموضوع مهاجما طه حسين ، لأن مثل هذا الهجوم سيساعدني كثيرا في مجلس الوزراء ، يوم أن أستشهد بما كتب في « الرسالة » على أن للرأي العام الفني مطالب يجب أن تنال ! أما التاريخ الذي تقول إنه سينصفني في الغد القريب أو الغد البعيد ، فصدقني إذا قلت لك إنني ما اتجهت إليه يوما بتفكيري كلما قدمت إلى الناس عملا من الأعمال . . حسبي أن أتجه إلى نفسي وحدها وإلى ضميري وحده ، حتى يستريح كل منهما وأستريح » ! !

وقلت له بعد أن تطرق الحديث إلى موضوع آخر أمسك القلم مؤقتا عن الإشارة إليه ، قلت له بعد ذلك وقبل أن أودعه شاكراً له هذا اللقاء الذي لن أنساه . « هل تعلم ياسيدي أن ما حدث في هذا اللقاء كان بالنسبة إلي مفاجأة كاملة ؟ لقد حضرت إليك وليس في ذهني غير خاطر واحد ، هو أنك ستحاسبني على ذلك المقال الذي ظهر في تلك الصحيفة المعارضة ، فإذا أنت تحدثني عن شيء آخر لم يخطر لي على بال ، وأعني به مقال « الرسالة » . . . لقد كنت أتوقع أن يدور كل حديث حول ذلك المقال ، لأن بعض المسئولين في الوزارة قد اتهموني بكتابته ، إن لم أكن في رأيهم قد أوحيت به » !

ويالها من ابتسامة رقيقة عذبة تلك التي داعبت شفتيه ، ثم غمرت بضيائها الباهر آفاق الشعور حين قال : « أوه .. ذلك المقال الذي ظهر منذ يومين ؟ لا ضير أبدا من أن يكون كاتبه هو أنت ، ولا ضير أبدا من أي هجوم يوجه إلى وزير المعارف ، مادام رائده الحق كما قلت لك وقائده الضمير » !!

ونهض الرجل العظيم النبيل واقفا ليودعني في حرارة ، حتى لقد هبت على الروح من الماضي البعيد نسمات . . . رباه ! إن المنصب الخطير لم يغير من خلق طه حسين ، وإن الصورة الحبيبة التي عرفتها بالأمس . لم تنل من بهائها الأيام !!

أنور المعداوي

١٩ - ٣٦